

200: ما وجه الانتفاع بالإمام عليه السلام في غيبته؟

2013-07-02 الموقع الرسمي لسماحة الشيخ جلال الدين الصغير

أبو هادي العاملي . لبنان (الفيسبوك): وردت بعض الأحاديث عن انتفاع المسلمين بالإمام عليه السلام في غيبته، كيف نفهم ذلك؟

الجواب: من المسلم أن غيبة الإمام صلوات الله عليه ليست إنزواء عن المسؤولية الملقاة على عاتق الإمام روجي فداه، ولا تنصلاً عنها، كما وأنها ليست تخلياً عن دور الإمامة، بل هي نهط من أنماط مهارة دور الإمامة في التعامل مع الشأن السياسي والاجتماعي بصورة غير ظاهرة بعد فترة كبيرة من تعلم الناس على الدور الظاهر لمهارة هذا الدور، مع احتفاظ الإمام صلوات الله عليه بمهارة أدوار الإمامة في الساحات التي لا دخل لها بهذا الشأن، أي أن الإمام صلوات الله عليه في عهد الغيبة أبدل مهارة ومسؤولياته من النهط المعلن الظاهر كما كان يفعل بقية الأئمة صلوات الله عليهم إلى نهط غير معلن خاصة وأن العديد من الممارسات المعلنه التي كان الأئمة من أبائهم وأجدادهم عليهم السلام اجتمعين قد اتهاوا فيها القيام بمهامهم، وأنجزوا المطلوب منهم كأئمة ناطقين بالهدى، مما لا يستدعي اجترار الدور والسكون عند نفس المهارة، فالقاعدة الشعبية تم تأسيس قواعدها وانطلقت ضمن مؤسسات راعية إن بدت بسيطة المظهر في البداية إلا أن التاريخ وواقع اليوم يشهد أنها كانت ابعد غوراً مما تصوّرته الناس، وما تحتاجه هذه القاعدة من تنظير عقائدي وتشريع فقهي ونظم سلوكية قد تم اطلاقه بشكل مكثف مما يكفيهم في ان يعتهدوا عليه دون الاعتقاد على وجود ظاهر للإمام صلوات الله عليه، وقد جاء نظام الوكالة والذي تطور لاحقاً إلى نظام المرجعية ليرعى عملية تأطير القواعد الشعبية بالأطر التشريعية والعقائدية وفق معطياتهم اليومية المعاشية، وما شكى الشيعة طوال فترة الغيبة من ذلك أبداً، بل يشعر المدقق والمحقق أن ما تم اطلاقه في النصوص الشرعية من الأئمة صلوات الله عليهم في مختلف الشؤون أعطى الشيعة قدرة كبيرة ولا زال في ايجاد أعظم مؤسسة تشريعية لم نشذ اطرافها عن قواعدها، ولم تختلف أصولها عن تفصيلاتها منذ اليوم الأول للغيبة وليومنا هذا، كما وأن تحميل المرجعية مهمة إخراج التفاصيل من الأصول التي أطلقها الأئمة صلوات الله عليهم وفقاً للقاعدة التي أشاروا إليها مراراً من أن عليهم إلقاء الأصول وأن علينا التفريع، أتاح حركية مذهلة للفقهاء الإمامية كما وأتاح كشف أعماق ما سبق للأئمة صلوات الله عليهم أن تحدثوا عنه بعبارات مبسطة، صحيح أن الفقهاء اختلفوا دوماً في

بعض الاحكام والتشريعات، ولكنها من النهط الذي لا يضر بالأصل ولم يتخلف عن الأصل،
مها حوّل هذه الخلافات بدورها إلى عمليّة شحذ للهمم العقلية وتطوير وتشذيب لفهم
النصوص عند هؤلاء الفقهاء.

وإذا ما علمنا أن تقديرات الأئمة صلوات الله عليهم علّقت عمليّة النهوض بالمسؤولية
السياسية لإحلال العدل والقسط وإقامة حكومة العدل الإلهي على وجود القاعدة الشعبية
التي تحتضن ذلك، فلا عدالة من خلال وجود الحاكم العادل والمشروع العادل من دون وجود
المجتمع الذي يتحمل ويقبل بالعدل، ولعل مثال أمير المؤمنين عليه السلام يكشف لنا هذه
الحقيقة بجلاء، فلقد كان أعظم مشروع عدالة عرفه التاريخ، ولم ينقصه التنظير للعدالة
ولكنه كان محتاجاً إلى المجتمع الذي يعينه على هذا الأمر، ولكن إعداد المجتمع يحتاج إلى
مقومات وازمان لم تتح للامير صلوات الله عليه، مما أدى إلى أن لا يرى مشروعه النور، وإن
لهس الناس في شخصيته النموذج التطبيقي للحاكم العادل، ولذلك فإنّ جلّ مبررات الغيبة
كانت تتعلق بالعمليّة التربوية لهذا المجتمع سواء طرحت بصيغة قلة الناصر أو طرحت
بصيغة كثرة الظالم، والحديث عن الأصداب الثلاثمائة والثلاثة عشر في واقعه حديث عن
هؤلاء الذين سيتحملون أعباء هذه العمليّة، ولذلك طرحوا في إطار من التفضيل لكي
يستفزوا همم المؤمنين والمحبين للإمام صلوات الله عليه لكي يسيروا بهذا الاتجاه، ومن
الواضح أن العمليّة التربوية التغييرية لا تحتاج إلى القائد بصورة ظاهرة، خصوصاً مع وجود
أضرار جادة على حياة هذا القائد، بل لربها أثر وجوده الظاهر بأضرار على نفس دوره، لأنه
سيطالب بالقيام في وقت يكون المجتمع غير قادر على تحمل المسؤولية الاجتماعية
والسياسية لهذا القيام، فإن قام وند المشروع وقتل كما حصل مع أجداده الطاهرين، وإن
لم يقر به هلّ الناس منه ومن مشروعه، بل لربها كذبوه واعتبروا الأمر مجرد دعوى والواقع
يكذبها، مما يجعل خيار الغيبة هو الخيار الوحيد المتاح لذلك، ولكن هذا الخيار الذي التجأ
الإمام روجي فداه إليه مضطراً لا ينبغي ولا يلغي عنه مسؤوليته تجاه هذه العمليّة، ولكن
هذه المسؤولية حينها تتفدّ فبطريقة غير معلنة وغير منسوبة لأحد، ولكنها وجود يتحرك
وظاهرة تنهوي، فمن جهة أعلن هو بأبي وأمي بأنه غير مهمل لرعاية شيعته، بل التزم بذلك
كما نلاحظ ذلك في التوقيع المشهور الصادر للشيخ المفيد أعلى الله مقامه: إنا غير مهملين
لهراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء، [1] واصطلمكم [2] الأعداء،
فاتقوا الله جلّ جلاله، وظاهرونا على انتياشكم [3] من فتنه، قد أنافت [4] عليكم، يهلك
فيها من حرّ [5] أجله، ويحى عنها من أدرك أهله، وهي إهارة لأزوف [6] حركتنا، ومباتتكم
بأمرنا ونهينا. [7]

ومن جهة أخرى هناك الحالات التي نَعْبَرُ عنها بالتأييد والألطف والتشديد والتوفيق، وهي وإن لم نر من السبب لها، ولكننا نحسُّ بآثارها العمليّة، هذا بالنسبة لها ننتبه إليه، فما بالك بها لم ننتبه إليه، وكل هذه الأمور موكولة إليه بأبي وأمي، وهذه القضايا سيّان بين أن تتظاهر بصورة أعمال ترتبط بأشخاص أو بأحد الناس، أو ترتبط بالجهوع أو الجوعات كبرت أو صغرت.

ولو أضفت إلى كل ذلك حالات الاستغاثة والتوسل والاستشفاع مما نلهمه لهس المجرّب، ونعدُّ ذلك من المجرّبات التي لا تحتاج إلى دليل، لكون حصولها هي بنفسها دليل عليها، وعليه فإننا نجد أن بعض الأحاديث التي تتطرق هنا وهناك بأن الإهم صلوات الله عليه ليس من شغله قضاء حوائج الناس أو تلبية طلباتهم أو ما إلى ذلك، هي أحاديث غير مسؤولة فلئن فعل هذه الأمور غيره من الأئمة صلوات الله عليه، وهي كثيرة جداً، فما الذي يمنع من أن يقوم بها روجي وأرواح العالمين له الفداء!!، نعم لا يمكننا أن نختزل دور الإهم صلوات الله عليه بهذه الأمور، هو كلام صحيح، لأن دور الإمامة هو أعظم من ذلك.

هذا من جهة الدور الاجتماعي والسياسي، ولكن من الواضح أن الإمامة لا يتلخّص دورها في هذا المجال، فثمة مهام للإمام لا علاقة لها بهذا الدور، وخذ مثلاً على ذلك بدوره في إمامة الوجود، فحينها يقول الإمام صلوات الله عليه بأن خلو الأرض من الحجة ودعاء لأن تسيخ الأرض بأهلها، نفهم أن هناك دور يمارس خارج الساحة الاجتماعية، إنه يتعلق بدوام الوجود وهو ما أطلقنا عليه وصف: (إمامة الوجود) في كتابنا الإمامة ذلك الثابت الإسلامي المقدّس، وهذا عن دور الخلافة الربانية؟ ونحن ممن يرفض أن تكون الخلافة الربانية قد أوليت لعامة الناس، بل هي أوليت لخاصة من وصل إلى درجة التسبيح المطلق والتقدّيس المطلق بدرجة فاقت نفس درجة كبار الملائكة وأعظاهم، وهذا الدور هو أعظم من دور إمامة الوجود، وهذا عن دور حمل الأمانة الربانية المعروض على السماوات والأرض والجال فأبوا أن يحملوها؟ وهذا عن دور الإمامة الشاهدة؟ وكذا عن دور إمامة التسخير المعروضة في قوله تعالى: سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْإِمَامَةِ والتي أشرنا بأحاديث مفصلة لكل منها في كتابنا الإمامة ذلك الثابت وكذا الخلافة الربانية، فراجع إن شئت.

إن كل ذلك هو من تجليات الإنتفاع بوجوده الشريف بأبي وأمي في غيبته، وهو المصدق لقول الإمام صلوات الله عليه في التوقييع الصادر لاسحاق بن يعقوب: وأما وجه الإنتفاع

بي في غيبيتي فكالانتفاع بالشهوس إذا غيبتها عن الأبصار السحاب، وإني لئهان لأهل الأرض
كها ان النجوم أهان لأهل السماء. [8]

[1] الأواء: الشدة.

[2] الاصطلام: الاستئصال.

[3] الانتياش: التخليص والانتقاد.

[4] أنافت: بلغت.

[5] حرّ: دنا واقترب.

[6] أزف: دنا واقترب.

[7] الاحتجاج: 498.497.

[8] كمال الدين ونهار النعمة: 485 ب 45 ج 4.